٤ – معالم على طريق النقد الأدبى

قرأت فى مجلة جامعية مقالًا بعنوان (الأدب المحموم) تعرض صاحبه فيه للأدب المعاصر – دون تفرقه بين شعره ونثره بل دون تحديد لشعره أو لنثره – بما لا يرضى الله والرسول ، وبما لا يريح روح النقد ولا ضمير الناقد ؛ فقد وصفه إجمالاً بأنه أدب محموم ، ومعلوم أن المحموم يهذى ويخلط ؛ أما تفصيلًا فقد ذهب إلى أنه انفعالات سطحية ترتكز على الحدث الطارىء وتقنع بالتصفيق الناشىء عن سرعة الاستجابة ، ولم يلبث أن رماه بالسطحية والابتذال والغموض والأمية .

وواضح أن الناقد الفاضل قد اشتط فى نقده وبالغ فى تحامله وأمعن فى التعميم غير السليم ؛ فليس صحيحًا بل ولا معقولًا أن يكون الأدب أو (معظمه) – على حد قوله – فى ذلك الدرك الأسفل من الرداءة ولا على هذا القدر الكبير من السوء . كل ما هنالك أن صاحب المقال قد عمم وأخذ الكل بذنب البعض ، فجاء حكمه متجاوزاً الموضوعية إلى الذاتية ، والذاتية غير معترف بها فى النقد الأدبى إلا فى حدود ضيقة ، وهى – حتى فى هذه الحدود الضيقة – لا تتعدى التذوق والنقد التفسيرى .

أما النقد الحكمى فإنه يخضع لمقاييس خاصة ولقواعد معينة ، وهو – بمقتضى هذه القواعد والمقاييس – لا يتشبث ولاينبغى له أن يتشبث

بالإساءة القليلة وينسى الإحسان الكثير ، ولا يشنع ولا يجوز له أن يشنع على الأدباء لأشياء قصرت عنها عنايتهم ، ولم تسعدهم فيها طباعهم ، ويغفل روائعهم وقد ملأت الأسماع والبقاع ، فلا يسقط القصيدة من أجل بيت ، ولا الشاعر من أجل قصيدة ، ولا الطبقة من أجل شاعر ، ولا الأدب فى أمة من أجل عصر من عصورها ، ولا أدب الإنسانية كلها من أجل جيل من أجيالها أو شعب من شعوبها ، وإلا كان كنقد أبى الحسن ابن لنكك – وهو ناقد عربى كان بالبصرة فى القرن الرابع الهجرى – فقد بالغ فى ثلب المتنبى بسبب صدر هذا البيت :

بقـائى شـــاء ليس هــم ارتحالا وحسن الصبر زموا لا الجمالا

فلما قيل له : أين أنت من قوله بعده ببيتين اثنين :

كأن العيس كانت فوق جفنى مناخـات فلمـــا ثُرن ســالا

استشاط غضبًا وقال : هذا المصراع يسقط دواوين عدة شعراء[1].

وهذا خطأ أىُّ خطأ ؛ فلو كان الأمر كما قال ، لكان أحد أبيات الفرزدق – مثلاً – كفيلًا بإسقاط شعر تميم جملة ، لكن ابن لنكك منحرف ،ونقده – لهذا – مردود عليه .

ولما كنت لا أريد لأى ناقد أن يكون ابن لنك أو حتى كابن لنكك فقد أعطيت هذه المعالم على طريق النقد الأدبى والله الموفق .

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ٢٣٠ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم بالاشتراك .

(١)

ليس النقد الأدبى سوى رد فعل لأدب ، وهو رد فعل مناسب للفعل حسنًا أو قبحًا ؛ ذلك أنه لابد للأثر الأدبى فى نفوس الناس من صدى يتمثل فى استجابتهم له واحتفائهم به أو فى نفورهم منه وازورارهم عنه .

يقف هذا الصدى عند ذلك الحد حينًا ويتعداه إلى إصدار بعض الأحكام العامة بالجودة أو بالرداءة أحيانًا ، وترسل هذه الأحكام مبهمةً موجزة دون مقدمات أو حيثيات تارة ، وقد تحلل أو تعلل تارة أخرى .

على هذا الوجه وبتلك الكيفية نشأ النقد الأدبى عند العرب ، بل على هذا الوجه وبتلك الكيفية نشأ النقد الأدبى عند غير العرب فى القديم والحديث.

(٢)

على الأدباء أن يؤمنوا بأن كل إنسان يؤخذ من كلامه ويترك ، وأن يسلموا بدور النقد فى تقويم الأداء الأدبى وتسديده وصولا به إلى درجة أفضل وأكمل ، وليعلموا أن الأدب الضعيف سيغرق فى بحر المجهول لا محالة ، ولن ينقذه وصف أصحابه له بأنه أدب هادفٌ ، فكل أدب هادف إذا كان قد قيل بفنية وأصاب موضعه وجاء فى وقته .

وتوظيف الفن بجعله للحياة توظيف خاطىء ؛ فكل شىء فى الحياة إنما هو منها وإليها ولها ، كل ما هنالك أن ثمة مواصفات يجب تحقيقها

فى أية عملية إبداعية ، وهذه المواصفات تراعى لذاتها ؛ لأنه لا قوام للعمل الفنى إلا بها ، ولا ينبغى – لهذا – خلطها بغيرها مما لا حاجة للفنان إليه ، بل مما عساه أن يعوقه عن أداء رسالته .

وقد كان تيودور جوتيه (T.Goethe) يهاجم النفعية الأدبية ، ومن عباراته المشهورة فى ذلك : « إن الأشياء تبدو جميلة بنسبة عكسية للمنفعة »[1].

وقريب من هذا قول بودلير (Baudelaire) : ليس للشعر غاية وراء نفسه فإن اتجه نحو غاية خلقية فقد نقص من قوته الشعرية »[2].

وبمناسبة كلام بودلير (Baudelaire) نسأل : هل يمكن الفصل بين الفن والأخلاق ؟.

ونجيب : لا . فالعلاقة بينهما قائمة فى أكثر من موطن .

وأول هذه المواطن يتصل بطبيعة العمل الفنى نفسه ؛ فهو تعبير عن عواطف معينة وهذه العواطف تحمل فى ذاتها مميزات أخلاقية ؛ إذ من النادر وجود عاطفة خالية من الصبغة الخلقية ، ولما كان الشعر هو الموطن الأصلى للعواطف فهو أردنا أو لم نرد خلقى ، وما دام الشاعر لا يميت الضمائر ولا يفسد العواطف ولا يضعف الإرادة فهو أخلاقى أو على الأقل منسجم مع الأخلاق[3].

---

(١) تيارات أدبية بين الشرق والغرب د. إبراهيم سلامة ص ٣٤١ .
(٢) فن الشعر د. إحسان عباس ص ١٨١ .
(٣) أصول النقد الأدبى أحمد الشايب ص ٢٠٥ .

وثانى هذه المواطن أن التعبير عن هذه العواطف يرحينا منها ويخلصنا من ضغطها علينا ، وهو ما سماه أرسطو بالتطهير وجعله مهمة الشعر الأصلية ، وإذا اعتقدنا بالتطهير كما وصفه أرسطو فمما لا شك فيه أنه يعد مهمة خلقية يمكن أن ننسبها إلى الفن .

ولصلة الأخلاق بالفن موطن ثالث يمكن النظر إليه من زاوية الأخلاق ، فكثير من التجارب الخلقية تمتعنا وتسرنا من ناحية جمالها ، أى أن الأخلاق نفسها فنية[1].

وعلى فرض أن العمل الفنى ليست له غاية وراء نفسه ، وإنما هو غاية فى ذاته ، فإننا نلاحظ أنه بمجرد وجوده يحقق لنا لونًا من ألوان الحركة الشعورية وهذه فى ذاتها غاية إنسانية وحيوية ، وقصدها أو القول بها لا يجافى الأخلاق ولا يخدش الفنية .

فليوفر أصحاب الهدفية كلامهم ، وليسلموا معنا بأن الأدب فى ذاته وبصرف النظر عن متلقيه ، أى بمجرد صدوره يكون أدبًا هادفًا ، وما عليهم إلا أن يقولوا أدبًا تنطبق عليه – فنيًا – كلمة أدب.

(٣)

النقد الأدبى – بمفهومه الفنى– يتوجه أو يجب أن يتوجه إلى النص المنقود ، لا إلى نية صاحبه ، أى إلى ما قاله الأديب فعلاً ، وليس إلى ما كان ينوى قوله، فما هدانا إليه هو المعول عليه فى الحكم النقدى ، ولا عبرة بما يقال من أن الشاعر أو الكاتب أراد غير ما أفاده كلامه .

---

(١) فن الشعر د. إحسان عباس ص ١٧٩ .

قال قدامة بن جعفر : « وليس إذا علمنا أن شاعرًا أراد لفظة تقيم شعره فجعل مكانها لفظة تحيله وتفسده ، وجب أن يحسب له ما يتوهم أنه أراده ويترك ما صرح به »[1].

ونجد هذا المعنى فى نقد القاضى الجرجانى لبيت المتنبى :

ما بقومى شرفت بل شرفوا بى وبنفسى فخرت لا بجدودى

قال : فختم القول بأنه لا شرف له بآبائه ، وهذا هجو صريح .

وقد رأيت من يعتذر له فيزعم أنه أراد : ما شرفت فقط بآبائى ، أى لى مفاخر غير الأبوة ، وفىّ مناقب سوى الحسب ، وباب التأويل واسع ، والمقاصد مغيبة ، وإنما يستشهد بالظاهر ويتبع موقع اللفظ[2].

* * *

وما ذكرناه معناه أن من حق الناقد أن يفهم من النص المنقود ما لم يرده صاحبه عند إنشائه ، وهو فهم مشروع ما دمنا نقتصر فى مجال التذوق الفنى على التجربة الأدبية ، وليس من المستبعد – والأمر كذلك – أن يختلف رأى الأديب ورأى الناقد ، بل قد يتفق أن يرى الناقد ما لا يراه الأديب فى الحكم على إنتاجه .

مثال ذلك أن الكميت كان يرى أن بائيته هى خير قصائده فى بنى هاشم ، ثم رأى الدكتور زكى مبارك أن اللامية هى التى يمكن أن يقال فيها ذلك[3].

---

(١) نقد الشعر . قدامة بن جعفر ص ٢٠٦ .

(٢) الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ٢٨٤ .

(٣) المدائح النبوية د. زكى مبارك ص ٩٢ .

والحق مع الدكتور زكى مبارك ؛ فالشاعر يقدم إحساسه الخاص ، بينما ينظر الناقد إلى نواح فنية قد لا يفطن لها الشاعر ، وقد يحدث أن يتعصب الأب لأحد أبنائه ويراه أحسنهم على حين يرى الناس والأقارب أن هذا الابن أقل من إخوته فى الملكات والمواهب.

(٤)

النقد الأدبى ينصب أو يجب أن ينصب على الحسنات والسيئات جميعًا ، ومن هنا كان حتمًا على الناقد أن ينقد نقدًا جمليا .

والنقد الجملى هو أن ينظر الناقد فى النص المنقود كله ولا يكتفى بقراءة بعضه كى يكون الحكم عليه وعلى صاحبه عادلا ومنصفًا .

وفى تراثنا النقدى أمثلة ناضجة للنقد الجملى .

من ذلك أن ابن أبى الإصبع المصرى يورد لابن شرف القيروانى قوله فى وصف قلم :

قلم قلّم أظفار العدا ... وهو كالأصبع مقصوص الظفر
أشبه الحية حتى إنه ... كلما عُمِّر فى الأيدى قصر

ويسهب فى ذم البيت الأول ، ثم يستدرك على نفسه بقوله :

« إلا أنه كفر بحسنات البيت الثانى سيئات البيت الأول ؛ فالحسنات يذهبن السيئات » .

وهذا هو النقد الجملى[1].

ومن ذلك أن ابن نباتة ينقد ديوان صديقه ابن قلاقس فيقول :

طالعت ديوان الأديب البارع أبى الفتوح نصر الدين بن قلاقس ، فطالعت الفن الغريب ، بيد أنى وجدت له حسنات تبهر العقول فضلًا ، وسيئات يكاد بذكرها ابن قلاقس يقلى[2].

ولم يكن بوالو (Boileau) شيخ المدرسة الكلاسيكية فى فرنسا يضع نصب عينه وهو ينقد سوى أمرين هما :

الحكم على الإنتاج الأدبى جملة ، ورعاية القواعد اللازمة فى اللغة وفى الفن .

ورعاية القواعد اللازمة فى اللغة وفى الفن . تعنى أن هناك قاعدتين : علمية وفنية وهو أمر مسلم به لكن مع ملاحظة الفرق بين القاعدتين من حيث إن الأولى ملزمة ؛ لأنها لصحة التركيب وسلامته من الخطأ ، أما الثانية فغير ملزمة لأنها لتوفير الجمال والإعجاب به .

ونخلص من هذا الحشد إلى أن فهم البعض للنقد على أنه تتبع العثرات فقط فهم خاطىء وفى غير محله ؛ فالنقد يشمل الحسنات والسيئات معًا ، وليس من العدل أن نقف نحن النقاد عند السيئات ونغفل الحسنات أو العكس ، فالناقد يجب أن يكون محايدًا ، وحقل النقد يجب أن يسور بالحياد.

---

(١) تحرير التحبير . ابن أبى الأصبع ص ٥١٠ .

(٢) ابن نباتة .. عمر موسى باشا ص ٢١٩ .

(٥)

الناقد أخو الأديب ورفيقه، وإذا صور له غروره أنه (هارون) أى الأفصح لسانًا فليعلم أن الأديب (موسى) هو الذى يوحى إليه ، ويلهم ما يقول أو يكتب .

وواجب الأخوَّة والرفقة والرسالة المشتركة والعمل الدائب فى الحقل الواحد أن ينقد الناقد وهو مرخى الأعصاب مفتر الثغر منبسط الأسارير ، أما أن يأتى الأديب من فوق زامًا حاجبيه مقطبًا جبينه ، فهذا ليس بناقد بل حاقد .

على الناقد أن يكون رحيمًا حنونًا متواضعًا ودودًا لا يلزم الأديب بطموحه ولا أقول بجموحه ، وليدرك أن الطبيعة البشرية عاجزة عن الكمال المطلق ، فالكمال المطلق لله وحده والعصمة عن الأخطاء من خصائص الأنبياء .

يقول الناقد الرومانى هوارس (Horacee) تلميذ أرسطو : إنْ كانت هناك قصيدة فيها الكثير من أسباب الجمال ، فلن أتأذى من وجود لطخ قليلة بها سببها الإهمال أو عجز الطبيعة البشرية عن تلافيها » ثم يصرخ صرخته المدوية فى النقاد المتشددين عبر القرون « لا جناح على المرء إن هو نام بين الفينة والفينة فى الإنتاج الطويل النفس »[1].

ويقول الناقد الإنجليزى هـ. ب. تشارلتن .

---

(١) فن الشعر . هوراس . ترجمة لويس عوض ص ٨٨ .

« الواقع أن عددًا قيّلا جدًا من القصائد هو الذى نستطيع أن نقول عنه إن القصيدة منه شعر كلها من الفاتحة إلى الختام ، وأما الكثرة الساحقة مما نعده شعرًا جيدًا ، فلا تكون القصيدة منه شعرًا صادقًا إلا فى بعض أجزائها ، وتلك الأجزاء هى التى يبلغ التعبير فيها حد الكمال، فليس الشعراء شعراء فى كل ما ينظمون »[1].

(٦)

تشب المعارك النقدية بين الحين والحين فتندفع إليها الفراشات المهومة فى وسائل الإعلام المختلفة تعشو على ضوء نارها فتحترق بها ، ولو أنها رحمت نفسها وعرفت قدرها لعلمت أن الموضوع لا يخصها فلم تدل بدلوها فيه .

ولو سلكت هذا المسلك لسلمت وغنمت ، لكنه الجموح أو لكنها الرغبة الطائشة فى تحقيق الذات بدّلا من الالتزام العاقل باحترام الذات ، وقد قال الله تعالى : ﴿ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ لكن هؤلاء المتطفلين لا يؤمنون بالتخصص وبأن لكل صناعة أهلها الخبيرين بها والمتبحرين فيها ، والواجب أن نقطع دابرهم وأن نحرمهم الزج بأنفسهم فيما ليس لهم به علم .

ولأنه لا يصح إلا الصحيح فيجب أن نرجع فى الأدب إلى الخبراء به وهم النقاد ، وإذا استفتيناهم فيجب أن نقبل قولهم ولو كان غير معلل؛ ففى مجال الفنون تكثر الأشياء التى تحيط بها المعرفة ولا تؤديها

(١) فنون الأدب . هـ. ب. تشارلتن . ترجمه د. زكى نجيب محمود.

الصفة ، ألا ترى أنه قد يكون فرسان سليمان من كل عيب موجود فيهما سائر علامات العتق والجودة والنجابة ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدربة .

أو قد تكون الفتاتان الجميلتان المتساويتان فى الحسب والنسب ، يخطب إحداهما الخاطب ولا يخطب الأخرى ونسأله : لم خطبت هذه دون تلك ؟

فلا يحير جوابًا أو قد يحيره لكنه لا يؤدى عنه ما أدركه .

وكذلك الشعر : قد تتقارب القصيدتان الجيدتان النادرتان فيفضل أهل العلم به إحداهما على الأخرى بشىء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان .

ولهذا كان من الواجب أن يسلم لأهل كل صناعة صناعتهم ولا يخاصمهم فيها ولا ينازعهم إلا من كان مثلهم فى الخبرة وطول الدربة والممارسة ، فكثرة المدراسة تعدى على العلم كما قال ابن سلام الجمحى[1].

وقديمًا قال قائل لخلف الأحمر : « إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته فما أبالى ما قلت فيه أنت وأصحابك . فقال له : إذا أخذت أنت درهمًا فاستحسنته فقال لك الصراف : إنه ردىء . هل ينفعك استحسانك له »[2].

---

(١) طبقات الشعراء . محمد بن سلام الجمحى تحقيق محمود محمد شاكر ص ٧ .

(٢) طبقات الشعراء . محمد بن سلام الجمحى تحقيق محمود محمد شاكر ص ٨ .

هذا الحوار بين خلف ومتحديه نص فى القول بالتخصص ودعوة صريحة إلى سؤال أهل الذكر عما لا نعلم.

(٧)

فى صدر هذا المقال ما يشعر بأن النقد نوعان وبأن له مهمتين .

ولأهمية ذلك نوضحه أكثر فنذكر أن النوعين هما :

النقد الذاتى والنقد الموضوعى .

أما النقد الذاتى : فهو الذى يكون ممزوجًا بعواطف الناقد وأهوائه ، ومتأثرًا بالصلات الشخصية ، وهو – لهذا – نقد مغرض ينبغى الاحتراس منه .

وأما النقد الموضوعى :فهو النقد الذى يؤديه صاحبه بعد أن يكون قد أخرج ذاته وانفعالاته من مجال النقد بقدر استطاعته ، ونظر إلى الأثر الأدبى على أنه موضوع أجنبى عنه لا يهمه أن يكون صاحبه قد وفق فيه أم لم يوفق .

الناقد هنا على الحياد ، ولا يسمح لعواطفه بأن تتدخل فيما يفعل ، ونقده – لهذا – نقد عادل ومقبول .

والمهمتان المنوطتان بالنقد هما : التفسير والحكم .

والمعتدلون ينظرون إلى الحكم على أنه غاية وسيلتها التفسير ، أى أنهما قريب من قريب .

لكن من النقاد من سعى إلى تجسيم الفرق بين المهمتين .

ومع ذلك فالاتفاق قائم على أن الواجب الرئيسى للناقد إنما هو العرض ، عرض الأثر المنقود ، وهذا العرض ليس سهلا ، فلا مندوحة لمن يتصدى له عن التغلغل فيما ينقده لإبراز صفاته الأساسية من الجمال والقوة أو من القبح والضعف ، وأن يميز بين ما هو وقتى فيه وما هو خالد ومستمر وأن يحلل معانيه ويحددها ، وأن يوضح ما وراءه من مذاهب ومبادىء فنية أو خلقية أو اجتماعية ، وأن يبين العلاقات المتبادلة بين أجزائه وعلاقة كل جزء بالمجموع ، وأن يجمع عناصر هذا المجموع ويصنفها ويشرحها .

وبالجملة : يرينا الأثر المنقود على حقيقته : محتوياته وروحه وفنه.